قلب الرجل

سيد القصص الايطالي

بقلم الاستاذ محمود الخفيف

سمع جوجليلمو رنين الجرس مؤذناً بدخول شخص ، كما سمع حديثاً فى البهو ، ولكنه لم يتحرك . ومن عسى أن يكون ذلك الشخص ؟ أهو صبى الصيدلى ؟ أهو الخياز ؟ أم هى الخادمة ...؟ إنه ليعرف تفاصيل حياته البسيطة المملولة معرفة خبرة ووثوق وهو فى حجرته المالية ، حجرة دراسته يسمع من الأصوات كل يوم مايستدل به على ما يجرى حوله من شؤون الحياة ؛ ولقد ألف تلك الأصوات الرتيبة ألفة تامة ، حتى إن ما حدث فى ذلك اليوم من أمور جديدة قد اتخذ فى ذهنه صورة ما ألف من قبل كأنه رآه بالأمس ، ولذلك لم يثر فى نفسه اهتماماً خاصاً . فهنالك الصيدلى مثلاً ، وهو رجل حديث مقدمه ولله الحمد فلا يدرى من الأمر شيئاً ، ولن يستطيع أن يحجز الأمور عن وجهتها . وراح صاحبنا يحدث نفسه : « ستأتى هنا بعد برهة السنيورا أكاردى ثم يأتى الطبيب ؛ وبعد ذلك يتزايد عمر الجرس فترة ، ثم فى ساعة أو ساعتين ينتهى كل شىء ، كأن لم يكن هناك شىء . »

ولكى يهدهد لهفته ، فتح كتاباً وحول إليه بصره ، منصرفاً عن النظر إلى حديقته الصغيرة التى جدد الربيع خضرتها يومئذ ؛ وكانت حجرة دراسته كحياته محدودة متواضعة ، ولقد اتجه فكره وهو يقرأ إلى تلك الحيرة

تزوج فى الخامسة والعشرين وهو الآن فى الثلاثين ... خمسة أعوام من الوجود الذى لا يميزه شىء ، خمسة أعوام لا عى إلى السعادة ولا هى إلى الشقاء ؛ لقد نجحت أمه فيما ذهبت إليه ، ولقد قعد هو لما جبل عليه من الكسل عن مقاومة أغراضها ، كما خذلت عزيمته فلم يستطع أن يتولى بنفسه شؤون نفسه ! وكان قليل الثقة بكفايته أو بمقدرته على تنفيذ شىء ، وراحت الأم تنصح له حينما رأته مقبلاً على مواجهة الحياة ؛ وكثيراً ما ابتدرته بقولها : اتخذ يابنى من (إيرين) زوجاً لك . إنها الزوجة التى خلقت لك ، بل إنها المرأة الوحيدة التى تستطيع أن تجعلها شريكة حياتك . نعم إنها ليست فارهة الجمال ولكنها جادة مجدة ... كذلك ليست بالثرية وإن لم تكن فقيرة ، وأظنك لا يمكن أن ترمى فى زواجك إلى المال . إنها ستحفظ لك بيتاً طيباً وتعنى بتربية أطفالك ؛ وما عسى أن تطلب فوق ذلك ؟ إن مما لا يحمد لك أن تشايع خيالك وأحلامك إلى ذلك الشىء الذى تسميه ... »

على أنه فى الواقع لم يشايع أحلاماً أو يساير خيالاً قط . وقد تزوج من إيرين ليرضى بذلك أمه . ثم أخذ يوطن نفسه على أن يألف هذا الضرب من السعادة التى أشارت إليها

ولكنها كانت سعادة فاترة مصفارّة كادية ؛ على أن أمه كانت تعلم حق العلم ماذا تعنى بقولها حينما أشارت الى الخيال والأحلام ، فكان حلم جوجليلمو هو ابنة عمته آن ، وقد تزوجت تلك العمة من رجل غنى من رجال الأعمال . وكان جوجليلمو يتردد على منزل عمته وهو غلام ، ولكنه حينما طر شاربه حالت بينه وبين ذهابه إلى حيث كانت تقيم آن

وساوس عمته ، وما كان بين المنزلين من فرق كبير فى الثراء . نعم كان حلم جوجليلمو هو تلك الفتاة الجميلة الطويلة الممشوقة القد التى ينبعث العطر دائما من ثيابها ، ذلك الحلم الذى جاهدت أمه فى تبديده ... « وماذا كانت تنتظر آن من رجل مثله ؟ تتزوج منه !! يا إله الناس إنها تنظر الى ماهو أبعد من ذلك ... تحبه ؟ ألم يتبين أنها كانت أبداً تمتع نفسها دون أن تعيره التفاتة أو تتجه لحظة بفكرها إليه ؟ »

وكانت تلك الكلمات كفيلة بالقضاء على حلمه الجميل . وهكذا تزوج من إيرين ؛ والآن بعد سنين من السعادة الهزيلة الفاترة ترى إيرين موشكة أن تنجب غلاما . ولم يقابل جوجليلمو ذلك أول الأمر بكثير من الحماس إذ رأى الزمن يأتى له بشخص آخر يحول بينه وبين الأحلام ، ولكنه أحس بقلبه يمتلىء بالغبطة كلما تصرمت الشهور . ولد ؟ وما الولد ! أليس هو الشىء الوحيد الذى يعلل وجودنا ؟ ثم إنه يرى فيه خير منحة بعد ما لاقاه فى ماضى أيامه من أشجان وآلام ، وأحسن عوض عما فقد من الحب والسعادة

نهض من مكانه هذه المرة وترك حجرته وألقى نفسه فى الممر ؛ وهناك سطعت فى أنفه رائحة العقاقير المنبعثة من حجرة زوجته ؛ ولو أنه أنصت لسمع أنينها ، ولكن صوتا قويا هادئا قطع عليه تيار فكره فجأة ... « هأنذا أتيت ، هأنذا » وكان ذلك هو الطبيب رفيق صباه الذى كثيراً ما تردد على منزله . كان بدينا مرحا مشبع الوجه من الحمرة . ولعل وظيفته هذه التى كانت تنحصر فى إمداد الوجود بأنفس جديدة هى التى زادته حيوية ونشاطا

أتيت سريعاً على قدر ما استطعت ... ماحالها ؟ بخير ... هون عليك لا تضطرب ، لو كنت مكانك لخرجت من المنزل برهة أوجلست هادئا فى حجرتى . سأعود إليك بعد ساعة أو ساعتين وأطلعك على جلية الأمر »

وابتسم الطبيب ثم دخل حجرة المريضة ورجع صاحبه الى حجرته . وقد فكر بعد برهة فى الخروج من المنزل ، ولكن دافعا خفيا لم يتبينه ، دافعا مكونا من الخوف من جهة ، ومن توقع ما يسر من جهة أخرى ، أقعده عن الخروج ؛ فلبث فى مكانه مفكرا ، ولكن أفكاره القديمة لم تلبث أن عاودته ؛ وكان عجبا أن تعاوده فى الساعة التى يرى فيها وجوده يتصل بالمستقبل فى حياة وليده المنتظر ، فتقذف به فى أعماق الماضى خطوة بعد خطوة

وما كان الماضى غير آن ... آن دائما ... آن واسمها وذاتها وكل ما يمت بصلة اليها

لقد رآها مرات بعد زواجه ، ووجد أنها لم تتزوج حتى ذلك الوقت احتفاظاً بحريتها ، كما اعتاد أن يسمعها تقول ذلك ضاحكة . وهى الآن فى السابعة والعشرين لا تزال كما عهدها من قبل مرحة مرهفة . وكانت تزور بينه بين حين وآخر حيث اتصلت أسباب المودة بينها وبين إيرين ؛ على أنها لم تكن تكثر من الحديث معه وكان قصارى ما تبديه نحوه من اللاطفة ابتسامة أو اثنتين ، ثم تمد يدها اليه فتصافحه مصافحة الأصدقاء وتنطلق فى سبيلها

وكان يعتقد جوجليلمو أن أمه أخطأت التقدير ،

اذ لم تكن آن كما اتضح له فى شىء مما تصورته من الزهو والكبرياء . ولكنها فى الحق لم تكن امرأة عاطفة

هل زاد عدد الناس فى الردهة ؟ لقد سمع جوجليلمو صوت شخص يكلم الخادمة فى همس . ولقد جعله هذا الصوت ينتفض فى مكانه ، ثم فتح باب حجرته وظهرت له رأس لطيف

« انها أنا يا جوجليلمو ، أتأذن لى بالدخول ؟

ونظر جوجليلمو الى القمطر فى اختلاجة غريبة لم يستطع اخفاءها ، وكأنما كان يحب أن يغيب أفكاره فى ذلك القمطر ، فلقد كانت اختلاجة عينه كاختلاجة من يُرى متلبسا بجريمة ! ولكن آن تقدمت نحوه فى هدوء وهَوْن

« لقد جئت لأسأل ما حال ايرين الآن »

وبدا على جوجليلمو أنه شارد اللب الى حد أنها نظرت اليه نظرة عطف قائلة :

« جوجليلمو أيها المسكين ما أراك الا حائرا ... ! »

ورد صاحبها مغمغما : « لا . فالطبيب عندها »

ولم تلبث أن التمعت فى رأسه فجأة أفكاره حول هذه الآنسة التى يراها الآن تظهر اهتمامها بأمر يمت بصلة الى الحب والحياة ، فزادته تلك الأفكار ارتباكا واختلس نظرة الى جسم آن البض الجميل ، ذلك الجسم الذى رآه قد هيئ أحسن تهيئة لحمل الأجنة

« إجلسى لدى برهة يا آن ... فانى أحمد لك مجيئك الساعة ! »

وسمعت لصوته نبرات غريبة ، وتغير تغيرا عجيبا كما تتغير الموسيقى بتغيير اللحن . ونظرت اليه آن فى دهش وظلت صامتة برهة ثم سألته :

« أأنت فى حاجة الى شىء ؟ هل أستطيع أن أجعل من وجودى فائدة لك ؟ »

وجاء دوره الآن ليجيب ، فان دائرة صمتهما قد اتسعت حتى تركتهما حائرين ؛ وخيل الى كليهما كأنه يستمع الى صوت الآخر ، وكأنما عادت اليهما ذكرى عبارات قيلت من قبل ولكنها نسيت الآن أو امتلأ بها الفكر ، ولكن لم يتحرك قط بها اللسان

وأخيراً قطع جوجليلمو هذا السكون فجأة بسؤال غريب ، ظهر أكثر غرابة لصدوره من شخص خجول مثله ؛ ولقد كان وقعه على آن كقبلة لم يحسن أداءها :

« أنت جميلة كاملة يا آن ... لماذا لم تتزوجى حتى الآن ؟ »

ولقد التهب خداها من الخجل ، بل لقد ظهر وجهها كله والجزء العارى من عنقها تحت الغراء مشبوب الحمرة ، ولكنها حاولت أن تبتسم لتخفى تلك السحابة التى أظلمت فى عينيها

« فيم تفكر الآن يا جوجليلمو ؟ لقد بقيت عذراء لأنه ... لأنى لم أجد أحداً يخطبنى ... »

وضحك جوجليلمو بدوره ضحكة من قلبه . لم تجدى أحدا ؟ ياعجبا : إن وراءها من عشاق الشباب ما يفوق عددهم عدد من يتوددون الى جميع فتيات المدينة مجتمعات

« من أنبأك هذا ؟ »

« أنبأنى به أمى »

« إن أمك لم تدر من أمر هذه المسألة شيئا ... ولكن إذا فلنقل إنى أقسمت قسما » وأخذت

آن تضحك ثانية ولكنه كان ضحكا تخالطه الحيرة

« فيما ؟ ولكنا حينما كنا صغيرين نلعب معاً كنت دائما ترين أن الشخص الآخر ... »

« ولكن المرء يقسم بعد ذلك »

« ومتى كان قسمك ؟ »

« لا أذكر ذلك تماما ... وإنما أظنه منذ خمسة أعوام أو ستة ... »

« حينما تزوجت أنا ... أتعنين ذلك ؟ »

وهنا صمتت الفتاة ، وبدت عليها أمارات الارتباك وعضت على شفتيها ، إذ تبينت أن ما فاهت به هو الغباء بعينه

آه . نعم . أذكر أنك كنت مريضة تلك السنة ... ولم يكن يعلم أحد ما حقيقة الأمر ... أذكر ذلك — كنت وإيرين فى سويسرا ... وسمعت بذلك بعد حين ... « فهل » وتساءل باسماً « فهل كان عزمك وقسمك يومئذ ؟ »

« إلى اللقاء يا جوجليلمو ... إلى ذاهبة وسأجيء ثانية ... أرجو أن تدعونى « بالتليفون » وتخبرنى ما يكون من أمر ايرين »

« نعم سأخبرك . ألا تصافحيننى ؟ »

« ها هى ذى يدى إذاً »

مدت اليه يدها فهزها مطيلا ذلك على غير إرادته . ما ذاك ؟ لم كانت يدها هكذا ترتعد ؟ ولما شد عليها بعد ذلك أكثر خيل إليه وقد خالجه شعور مباغت كما لو أنها أسلمت نفسها اليه منهزمة ...

ألقى نفسه وحيداً ، ولكن العجب والرعب استوليا عليه مما جرؤ على قوله أو التفكير فيه ، وخيل اليه كأنه يرى الواقع شاخصاً أمامه يسأله : « ألا تفهم » ؟

لا . إنه لم يفهم . لقد أسلم قياده بالأمس ورضى أن يقوده ضلال أمه . وهكذا ألقى نفسه على شفا منحدر لم يجد بداً من النزول الى قراره . والآن يرى الماضى فى ضوئه الحقيقى . ويرى الآن أنه حينما كان يكثر من الذهاب ليرى آن كان وجهها يتهلل بشراً وفرحاً ، وأنه حينما كان يغيب عنها كانت ترى مكتئبة لذلك . وأعقب ذلك مرضها ؛ ثم توالت السنون التى أغفل فيها أمرها ، فلم تر بداً من أن ترضى فى عناد أن تتزوج من غيره ... ولكن لم ظلت ساكتة لا تخبره عن شيء ؟ أكان فى ذلك جرح لكبريائها ! أم هل كانت تخشى المذلة لا . إنها لم تفكر فى شيء من هذا ..

والآن ؟ هذا البوح المباغت ... واحمرار وجهها من الخجل ... ويدها المرتعدة ... ألا إنها لا تزال تحبه ... وحدثته نفسه قائلة « لا ليس هذا ممكناً » ولكن قلبه كان ينبض بين جنبيه مما يؤكد المفاجأة . كان ذلك كذلك ؛ كان ذلك كذلك ...

وبينما هو كذلك إذ دوت فى أرجاء المنزل صرخة ألم قطعت عليه تيار أفكاره وأعادته ثانية الى حقائق الحياة ، الى الواقع الذى لا يشوبه خيال ؛ ففى تلك اللحظة أو شك أن يولد له غلام ، وهو قطعة منه تمتد بها حياته فى سجل الوجود وتتصل بالمستقبل ، فعجب كيف يحزن على ما فاته من سعادة الحب بينما هو مقبل على رؤية ابن له . وأى سرور أعظم من أن يرى المرء فلذة من كبده بين يديه ؟ ولكن آن ... آن

الجميلة الساحرة ؟ إن طيفها يملأ ناظريه ، وسحرها يشيع فى نفسه . يا له من موقف ! إنه يرى نفسه بين سعادتين : سعادة أفلتت منه وصارت من تراث الماضى وذكرياته ، وسعادة توشك أن تحيط به ، فيمتلئ قلبه بهجة . ولكن ... ولكن ألا يمكن أن يكون منهما مزيج فتكمل احداهما الأخرى ؟

نادى الطبيب جوجليلمو ووقف أمامه مصفارًا مضطربا ، وقفز جوجليلمو متسائلاً فى لهفة :

« ماذا حدث ؟ هل فى الأمر شىء ؟ أجبنى ! »

« نعم ، يؤلمنى أن أجيبك أن الخطر محدق بها فقد طرأت مضاعفات من حيث لا أدرى ، ولكن لا يزال هناك أمل ، أمل يتلخص فيما تستطيع الجراحة أن تفعل . لقد رأيت الواجب يقضى على أن أخبرك ... »

تحير جوجليلمو وفكر فى زوجه ، تلك المرأة المسكينة التى تجود بحياتها فى عذاب وألم ، وأردف الطبيب قائلا :

« هل لك أن تجيبنى عما أسألك عنه ؟ إن ضميرك هو الذى يريك الآن ماذا يجب أن تفعل إذا كان لا يمكننى إلا إنقاذ أحدهما : الأم أو الوليد . ثم تختار ؟ »

« ماذا ؟ » « ماذا تقول ؟ » هكذا راح جوجليلمو يتساءل صارخا وعلى وجهه صفرة كصفرة الموت

فقال الطبيب : « تلك هى الحقيقة ، فلا يستطيع العلم أن ينجى الاثنين معاً ؛ فاما الأم وإما الوليد . فكر برهة ثم أخبرنى ... »

« نظر جوجليلمو نظرة فرأى حياته الجديدة جلية أمامه ، تلك الحياة التى ساقها اليه القدر : ولد هو أمله فى الحياة وغايته من الوجود ، ثم آن وهى سعادة قلبه من الحب . سيتغير كل شىء وسيتجدد كل شىء . نعم سيحل محل تلك السعادة الهزيلة الفاترة سعادة دائمة ناضرة ، سعادة تحقق كل ما تصبو نفسه إليه . إذا ماتت إيرين فسيتخذ آن زوجا له . ليس أمامه إلا أن يختار الآن . ومن ذا يلومه ؟ أليس يسير وفق قوانين الحياة ، وما تقتضيه غريزة النوع الانسانى ؟

وصاح جوجليلمو متأوهاً : « يا إلهى السماء ! »

وحدث قلبه ملحاً : « انك لا تحب زوجك . وإذا بقيت فسوف تمضى السنون وأنت تعيش مع امرأة لا ترى للحياة معنى إلى جانبها . فكر مرة ثانية كيف فقدت المرأة الأخرى ... وكيف كان ذلك نتيجة جهلك وضعفك ... هيا .... هيا كلتاهما ... انطق ... أترى الأمر هكذا صعباً ؟ انطق أيها الأحمق الغبى وقل : « نج الوليد »

ولكنه رفع رأسه ، وعلى وجهه صفرة مخيفة ووجه الخطاب إلى الطبيب قائلا فى ثبات :

« نج الأم »

المغيف

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألمانى

الطبعة الرابعة

ترجمها أحمد حسن الزيات

وهى قصة عالية تعد بحق من آثار الفن الخالد

وثمنها ١٥ قرشاً